

الشيخ محمد عبده كفاحه ونجاحه للأستاذ محمود الشرفاوي

في يوم ١١ يوليو من سنة ١٩٠٥ توفي المرحوم الامام الشيخ محمد عبده ، وقد بقي اسم الأستاذ الامام بدموته كما كان في حياته اسماً على الذكر حتى ليكاد يذكر إلى جانبه ما قاله المتنبى عن المجد :
وتركك في الدنيا دويماً كأنما نداول سجع المرء أعلمه الشر
كان اسم الشيخ محمد عبده في حياته وبدموته على الذكر ،

نقتضى أن أتفدى بالمدر قبل أن يتعشى هو بي .

وليس يبعد أن تقوم دول الاستعمار جملة لا فرادى ، ومتضافرة لا متنافرة ، وقد رفعت بعض أحقادها وضائفها على الرفوف ووضعت أيديها في بد الشيطان في سبيل الشيطان ، وبذلك وحده تواجه أهدافها بقوة واتحاد ، متحايلة حيناً ، صريحة سافرة حيناً آخر ، فتجتمع على الأسلاب والفتن ثم تنصرف إلى أوكارها تتوزع الجراح ، وتقتسم الأشلاء ، والدماء الزكية الطاهرة تسيل من أشداق الوحشية الذرية ...

هذه هي « هيئة الأمم المتحدة » هل تزيد سورتها شيئاً عن « عصبة الأمم » وهل تغيرت مبادئه ولسون شيئاً بتغير الزمن عن ميثاق الهيئة ؟ . كلا غير أن شيئاً واحداً يجب ألا ننساه هو أن العصبة الجديدة قد تخضت عن القرن العشرين أو قل القرن الذرى . وأخشى ما نخشاه أن يتحول العالم في القريب غير الماجل إلى جزيرة بيكيني ليكون اسمه الجديد « المستعمرة الذرية » .

وبذلك وحده يصبح العلم لا وطن له ، والحضارة لا أصل لها ، وتتناثر في الفراغ أجزاء الطبيعة وأشلاء الإنسان وأصواء العلم وتلك سياسة مرسومة سهرت عليها شهوات أهل الباطل في غفلة من مفاخر أهل الحق وتكالب على تخاطبها ورسومها شرذم الشذاذ والأفانين ، فلنبجث عنها في « قاموس الوحوش »

محمد محمود زنبور

وكان شخصه في حياته وبدموته عظيم الأثر .

فلم كانت للشيخ الامام هذه المنزلة في الحالتين ؟ .

ترك الشيخ عبده مؤلفات كثيرة ، منهم شرحه على نهج البلاغة ، وشرحه مقامات بدیع الزمان ، وشرح على البصائر التصيرية في المنطق ، وتفسير جزء « عم » ، والأسلام والنصرانية ، وهو مجموعة مقالاته في الرد على هانوتو جمت في كتاب ، وله كتاب ترجمه عن الفرنسية في النهضة الأوربية ، ولكن هذه الكتب كلها ليس لها ، في رأيي ، سوى قيمة جزئية محدودة . وبعض هذه الكتب لا يعرفها ولا يقرؤها الآن أحد ، حتى تفسيره الذي جمعه المرحوم الشيخ رشيد رضا ، رغم قيمته الذاتية وشهرته ، يصدق عليه أيضاً هذا الوصف الذي ذكرته عن بقية كتبه .

لم كانت ، إذن ، للشيخ هذه المكانة حياً وميتاً ؟

أعتقد أن شخصية الشيخ وكفاحه هما اللذان جعلاه هذه المنزلة في تاريخنا وتاريخ الشرق الحديث .

وقد كان يتخذ كتبه تلك ومحاضراته ودروسه ومقالاته وسيلة من وسائل كفاحه وتمكين دعوته الإصلاحية وبثها والعمل على نماء غرسها .

كفاح الشيخ ، عندما عين محرراً أول للوقائع المصرية ، لأصلاح الأداة الحكومية وإرشاد الحاكم والمحكوم فكان من أقوى المكافحين .

وكفاح ، معارضا ، الثورة العرابية ، لأنه كان من دعاة التطور التدريجي ، ولأنه كان متوجساً من الحركات الثنيفة ، ولأنه كان ، أيضاً ، سىء الرأي في زعماء الثورة ، وخاصة عمراني ، فلما خرجت الثورة عن كونها حركة من الجيش ضد ما يراه ظلاماً وهضماً ؛ وانتقلت إلى أن تكون حركة من الأمة كلها ضد الإنجليز ، انماز الشيخ إلى جانب الثورة مع وطنه ، فكان في معارضته وتأييده من أقوى المكافحين . وحوكم ، بعد فشل الثورة بوصف كونه من زعمائها وحكم عليه بالنفي سنوات ثلاث ، وكان إذ ذاك في سن الثلاثين .

وكفاح ، مع أستاذه جمال الدين في باريس ، حين أنشأ مجلة

ووقف موقفه المشهود ضد رغبة الخديو عباس أيضاً في صفقة
البدل التي كان يريدتها للخاصة .
وكافح كفاحه الأكبر في سبيل إصلاح الأزهر وإصلاح
المقيدة . وفي السكامة التي قالها الخديو عباس عند تنصيب الشيخ
الشريفي على الأزهر وتمريضه الجراح بالشيخ عبده حتى حمله على
الاستقالة من مجلس إدارة الأزهر ، في هذه الكلمات القاسية التي
ألقاها الخديو عند ذلك ما يدل على ذلك المدى الذي بلغه كفاح
الأستاذ الامام في سبيل رأيه وعقيدته .

* * *

أى ملك في جلدك ..؟

كلمة قالها السيد جمال الدين اتلميذه الشيخ عبده . ولعلها أقوى
كلمة وأصدق كلمة وصف بها الشيخ ، فقد كانت له أخلاق ملك .
شخصية قوية بل مسيطرة ، مصرودة ، وشجاعة ، ووفاء ،
وكرم فياض ، ومحبة للخير ، ودؤوب في العمل للخير العام ،
وتجرد من كل منفعة وغاية ذاتية . ودماثة خلق ، وسماحة ، وبر
بالضعيف ، ورقة جانب .

تلك كانت صفات الشيخ عبده وخصائص نفسه ، وهو بها ،
جدير بهذه المسكنة المرموقة التي بلغها في مصر والشرق ، وأجمع
عليها الناس بمد أن أدركوا هذه الصفات عنه .

* * *

هل نجح الشيخ عبده في كفاحه هذا ..؟

أقد كافح وتحدى وقاوم جميع القوى التي وقفت في طريقه
وطريق دعوة الإصلاحية أو السياسية .

وأية قوى كانت .؟. كان منها الإنجليز أول الأمر ، وكان
منها الخديو ورجال السلطان في الأستانة ، وشيوخ الأزهر ، وعوام
الناس ، وطائفة كبيرة من الصحف . وكل من يماله هذه القوى
ويتبناها ويتملقها ويسير في ركابها .

كانت كل هذه القوى مجتمعة أحياناً ومفترقة أحياناً ، تصده ،
وتتصداه ، وتؤوشه ، ولكنه كالجها جميعاً متفرقة ومجتمعة .
وكانت خصومات هذه القوى للشيخ لا تخلو ، في كثير من
الأوقات ، من العنف والقسوة والأسفاف ، ولكنه غالباً جميعاً

« العروة الوثقى » كافح مع أستاذه ضد الظلم وضد الاستعمار ،
وكانت مجانبها هذه ، التي لم يصدر منها سوى بضعة عشر عدداً ،
من أكبر أسباب القلق عند الإنجليز والفرنسيين ، ومن أكبر
عوامل التنبه واليقظة عند المسلمين والشرقيين .

وكافح في لندن متحدثاً وخطيباً في مجلس العموم ، وسفيراً
غير رسمي لدى رجال السياسة والصحافة من الإنجليز ، في سبيل
— استقلال مصر ووفاء الإنجليز بوعودهم في الجلاء عنها .

وكافح في بيروت في سبيل النهوض بالتفكير والتحرير الذهني ،
وبيروت كانت في ذلك الوقت قطعة من الأباطورية العثمانية ،
الأباطورية التي كان يحكمها السلطان عبد الحميد وتخضع لبيروت
رسطة جواسيسه الذين لم يكونوا يكرهون شيئاً مثل كراهتهم
لكل تفكير وكل حرية .

وكافح في سبيل إصلاح التعليم الديني في مدارس الأباطورية
العثمانية وفي سبيل إصلاح ولاية سوريا ، وكتب في هذا وذاك
إلى والي بيروت وإلى شيخ الإسلام في الأستانة .

وكافح في سبيل أن تدرك الأمة الإسلامية ، والإسلام عنده
— جامعة ، أن تدرك هذه الأمة حقوقها قبل حاكمها . حتى قال هو
عن نفسه إنه كافح « والأستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على
سولجانه ، ويد الظلم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أى عبيد »
وكافح ، في مجلس شورى القوانين ، وكان عضواً ، دائماً فيه ،
في سبيل تمكين سلطة الأمة والتوفيق بين المجلس وأصحاب
السلطة ، وتنفيذ أكبر عدد ممكن من القوانين الإصلاحية .

قال ، وهو في إنجلترا ، عن الخديو توفيق « إنه مهد لدخول
— الإنجليز مصر ، ولذلك لا يمكن أن نشر نحوهم بأذن احترام ، إننا
لا نريدخونة ، وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية .! » ، قال ذلك
عن توفيق ونشره في صحيفة إنجليزية ، وتوفيق يحكم مصر ، وهو
منفي عنها يتمنى لو يموت .

وقف في وجه الخديو عباس ، وكانت بينها مودة ، عند ما
أراد عباس أن يخلع على مفتي المية ، الشيخ محمد راشد ، كسوة
التشريفية ، وكانت القوانين لا تجمله مستحقاً لها ، رد على الخديو
أمام شيخ الأزهر والمعلم رداً قاسياً جعل الخديو يتغير وجهه فيظن
ويقف حتى ينصرف من حضرته الشيوخ .